

## هواء للبيع بين الدول العظمى

### الكاتب



نسيم الخوري

د. نسيم الخوري

تمتلكني قناعة مفتوحة للمجادلة بأن العقل القيادي العربي يتعامل مع الشخصيات الأجنبية وممثلي الدول من دون دراسة نقدية دقيقة وواقعية. لربما كانت تتقدم المفاهيم الدينية والأخلاقية على الوقائع والمصالح. أجازف بأننا لم نكن نعرف عن روسيا مثلاً سوى القليل فنجانب صورتها بكونها معروفة رسمها الغرب وصقلها ونقلها إلينا ومشينا بها ولو جاءت الحصيلة بعيداً من التوصيف المدموغ بالتجارب والتوقعات المتغيرة والمُحيّرة

لماذا هذه الاستهلالية؟

لأن الرئيس الأمريكي جو بايدن تهادى مفاجئاً العالم نحو كييف زائراً زيلينسكي في 20 الجاري فتولد المفاجئة -1 الثانية، الثلاثاء 21 في اليوم التالي عبر الخطاب «الجاهز» والمعدل لفلاديمير بوتين أمام الجمعية الفيدرالية الذي شد بمضمونه العالم؛ إذ تقاطرت النقاط الساخنة على الحروف في مقاربتة تحديات العظمة الدولية في الجغرافيا كما في الاستراتيجيات موجهاً رسائل مشفرة قد لا تقبل التأويل. ورحت عربياً أنقّب في هذا الكمّ الهائل من المكتوب والمُقال في الحديثين يليق بالتعبير، فاخترت ما قاله النائب الجمهوري مات غيتز من أن بايدن شاء «التخلي عن أمريكا من أجل أوكرانيا»، معتبراً أن هذا هو «النهج الذي تخلى فيه بايدن عن مصالح أمريكا منذ بداية رئاسته، ولهذا يُمكن لأوكرانيا أن تحتفظ به».

لأن الشخصية الروسية كانت لربما غامضة وصعبة من قبل، يصعب التكهّن بردود فعلها تجاه موقف أو فكرة -2 تجاهها. لماذا؟ لأنها من الممكن والشائع أن تتعامل معك ببرودة وحذر شديد، وخصوصاً عندما تتوقع بأن التقارب منها ناجم عن مواقف غامضة ومتشابهة مع دول أخرى فتصبح ساخنة وملتبسة. هكذا أصبح من الممكن والمألوف

تعاطيها بسخونة وحدة وحذر مع بوتين غير متوقع على الإطلاق ولا يستدعي الالتهاب كله. هذه الخصوصية التي لا تحتمل التكهّنات والتوقعات الكثيرة، كانت السبب الجوهرى الذي جعلنا نفهم هزيمة الألمان التاريخية في الحرب العالمية الثانية. لماذا أيضاً؟ لأن الروس كانوا يضربون؛ حيث لا يتوقع المكان أي عقل عسكري مجتهد في العالم على الإطلاق.

3- لم يحصل التدخل الروسى الأخير في سوريا إلا بوقته المثل الذي فاجأ العالم بعد سنوات خمس من الحروب التي -3 هزّت جذور العروبة. هناك أمر آخر فات الكثيرين وهو ذلك الافتقار السياسى المهم بضرورة التمييز بين الرؤساء السوفييت وتجنّب التعامل معهم جميعاً شخصياً مفبركة ومستنسخة نموذجية واحدة، لأن يلتسين وغورباتشوف مثلاً كانا مقربين جداً من الغرب وكلاهما تبوأ السلطة بدعم غربى ليس معروفة تفاصيله للجميع، بينما جاء وصول فلاديمير بوتين على رأس روسيا علامة فارقة أو نتيجة انتصار الـ«كي جي بي» في معركة انتزاع روسيا من يد الغرب ويدور البحث مجدداً عن لملمة الماضى المشتت والضائع بحلة معاصرة مفتوحة على العالم.

4- راحت روسيا بوتين، إذن، تصارع في معارك العودة إلى الساحة الدولية بعدما لاحت سوريا لها موقفاً متقدماً؛ بل -4 مغرباً في استعادة عظمتها نحو المتوسط وقد ساعدت أمريكا وحلفاؤها على تعزيز تلك الاستعادة عبر الحروب المفتوحة وتفشى الإرهاب هناك في 2011، مع أن بوتين كان يوظف الفرص الاستراتيجية التي كُتبت عنها الكثير للخروج البطيء من الأعباء والاحتلالات الأمريكية الباهظة. ضاعت الفرص بالطبع، لأن بعض القادة العرب رأوا أن المهمة معقدة وصعبة وبقيت المساعدات الأمريكية الباب الأوحى الذي حقق الأمن والاستقرار مع أن تلازم ربيع العرب القاسى ونهضة عصر العولمة أسهما في الزمن المناسب الصعب بالوعى وفتح نوافذ العلاقات الدولية على مصراعها، خصوصاً بعدما اتضح أن بوتين ينجح بإعادة بناء أعمدة العظمة لبلاده، وهو المعروف بأنه لا يفتح ملفاً ولا يتركه معلقاً؛ بل يجهد على تصفيته حتى النهاية

5- لبوتين أخيراً صور خمس: الأولى مبهمة بالصمت وكبت النوايا لزعيم استخباراتى تهافت الفنانون الروس لرسمه -5 وصعب عليهم التقاط ملامحه الزئبقية «الموناليزية» المترددة بين الحزن والتردد والتوثب والفرح والثبات والتحسب عبر ابتسامتها الرقيقة. ثمة صورة ثانية، بناها بوتين من خلال تراجع نحو رئاسة الوزراء وقعوده المدرس خلف ظهر الرئيس ميدفيديف مما تشكّل صورة بوتين الثانى بملامح شاءت الظروف أن تُبرز بعضها بوضوح. قد يكون أصدق تعبير أنقله عن هذه الصورة ما قاله المقدم التلفزيونى أليكسى بوشكوف حاصراً عدم جدوى تعاون موسكو مع واشنطن:

«ما زالت أمريكا تبيعنا الهواء، وهي تعتقد بأن علينا شراء هذا الهواء، وأن ندفع ثمنه دعماً حقيقياً غير مشروط لأمريكا،» لقد استعملت أمريكا العراق ساحة اختبار لقوتها على فرض الحلول العنيفة، وقلب الأنظمة التي لا تناسبها، وهذا ما «دفعها نحو سوريا والبلدان الأخرى في المنطقة من دون أي اعتبار لنا أو للأمم المتحدة»

[drnassim@hotmail.com](mailto:drnassim@hotmail.com)